مصرع الحسين

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان لنـا ، قبل
رب ، صديق معمر ،
، بنى الفرس — أو
أجدادهم الأولين على
صح — فقد كان عمره
ق المائة ، وكنا نحاسبه
يكون تارة مائة
عشرين ، وأخرى مائة
بضع سنوات ، فأضحك
وأقول : « يجب أن تقيد هذه الأرقام الرواغة » . وأتناول القلم ، وأقيم سنه على الورقة ، وأنظر اليه ، وأقول : « تفضل ! قبل أن يغرق الطوفان الأرض كنت سعادتك سفيرا لدولتك عند روسيا ، ولما صعق موسى عند ذلك الجبل ، كنت .... » فيتكلف الغضب ، وينهرنا عن هذا العبث ويقول : « اختش يا ولد ! »

وكان على عظم ارتفاع سنه قوى البنية ، متين الأسر ، وكنا نسأله عن سر ذلك ، فيقول إنه لم يتزوج قط ، فأضحك وأقول : « هات سبباً آخر ، فان هذا معلوم ، مفهوم بالبداهة ! » فيرفع عصاه الغليظة ، ويلوح بها كأنما يهم بضربى ، فينقلب ضحكنا قهقهة عالية مجلجلة ، ويسره سرورنا فيفيء الى الرضى

ويقول لنا أحياناً : « تعالوا نتمشى » ، فنسأله : « أين ؟ وإلى أين ؟ » ، فيقول : « فى طريق الجيزة » ، وكان بيته فى « باب الخلق » ، فنخرج معه ، إلى الزمالك ويقف بنا على جسره هنيهة ، يحدثنا ويروى لنا أخبار القرون الأولى ، أو يرتجل شعراً فكاهياً بجيزه ، أو نشطر قصيدة لواحد من شعارير ذلك الزمان تشطيراً يخرج بها إلى الهزل الصريح والمجانة الشديدة ، وأذكر من مطالع قصائده المرتجلة :

« قف حدثينى عند كوبرى الزمالك
وروى غليــل القلب يا أم مالك »

ثم نستأنف السير بعد أن نميل إلى طريق الجيزة ، حتى نفتر ونكل ، وتخذلنا أرجلنا ، وهو لا يزال كما بدأ ، فيسخر منا ، ويوسعنا تقريعاً وتعييراً ، فلا نبالى ، ونقعد على الأرض من شدة التعب . ويتفق أن تمر بنا سيارة ، تخطف ، فيشير اليها ويقول مازحا : « خذونا ، أخذكم الله ! »

ولم يكن هزالا ، وانما كان يوسع لنا صدره ، ويتقبلنا على علاتنا ، ويأنس بنا كأنسنا به ، وكانت الدنيا كلها أصدقاء له ، ولكنا نحن كنا نلازمه بعد أن نفرغ من أعمالنا ، وكان بيته نادينا ، وفيه تعقد حلقتنا الأدبية الخاصة . وما أكثر ما كنا نقول له : « نريد أن نأكل أرزاً فارسياً » فيمضى بنا الى المطبخ لنساعده ، فهذا يقشر بصلا ، وذاك يغسل آنية ، وثالث يضرم النار ، وهكذا ، حتى يطبخ الأرز ويغرف فى الصحون ، ثم نحف به — أعنى بالأرز — ونقبل عليه فنلتهمه

وكان لنا خيراً من الأب ، وأخلص من الصديق وأوفى ، وكان ربمـا رأى أحدنا ساهيا أو واجماً ، فيسأله عن سبب ما يبدو عليه ، فيفتح له صدره ، ويبثه ما فيه ، ويقول له بشجوه ، حبا كان ذلك أو هما ، أو غير ذلك ، فيشير عليه بالرأى الناضج ،

انا لفى زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس احسان واجمال

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه ... أنى بما أنا شاك منه محسود

ولمـــا صار ود الناس خبا ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمى أنه بعض الأنام

الخ الخ

* * *

منذ ألف عام كانت الخلافة الاسلامية فى بنى العباس تشارف النهاية وتلفظ الأنفاس الأخيرة من حياتها

وكان العالم الاسلامى فى جملته يضطرم ثورة ، ويتأجج بالمنازعات السياسية ناراً

على أن ذلك الاضطراب السياسى لم يمنع من سير الحيـاة الاجتماعية والعلمية فى بلاد العالم الاسلامى سيراً مطرداً الى الأمام

وعصرنا الحاضر يشهد تلك المشاهد نفسها أو قريبا منها ، كما شهدها أجدادنا منذ ألف عام

ألا ليت شعرى هل صحيح أن للتاريخ رجعة ؟ واذا كان ذلك حقا فهل يرجع التاريخ كل ألف عام ؟

على عبد الرازق

ويخلص له النصح ، ويقوى ضعفه ويشجعه ، ولا يزال به حتى تعود اليه البشاشة

وقال لنا يوماً : « خـذوا » وناولنا بطاقات فيها دعوة إلى ما كان يسمى « زفة الحسين » ، وما هى بزفة ، وإنما هى مأتم ، ولـكنها هكذا كانت تدعى على ألسنة العامة ، فذهبنا فى الموعد المضروب الى بيت رحيب فى زقاق ضيق ، فوجدنا هناك كثيرين من رجال مصر المعروفين ، أجلسنا معهم ، ثم دعينا الى مائدة مثقلة بألوان الآكال الشهية ، وكان الأستاذ البرقوق الى جانبى ، فظمئ على الطعـام ، وأشر الى بذلك — لا أدرى لـماذا — فأومأت الى الخادم ، فناوله كوباً رفعه الى فمه ، وما كاد يفعل حتى رده عنه ، وقال : « بففف ! » ، ذلك أنه كان سكراً مذاباً لا ماء ، فعجبنا واتقينا أن نشرب

وانحدرنا الى صحن الدار ، وكان فيها منبر ، ارتقى اليه شيخ فارسى ، وانطلق يقول كلاماً لم نفهمه ، ولـكن صوته كان يتهدج وكانت الدموع تتسايل على خديه ، وتبل لحيته الـكثة ، وقيل لنا إنه يرثى الحسين ويندب مصرعه ، وكان الذين يفهمون كلامه من بنى جنسه يبكون ، بل يعولون ، ومنهم من كانت تهيج حرقاته فيلطم ، أو يضرب صدره أو ظهره العارى بسلسلة غليظة من الحديد ، أو يضرب جبينه بطن سيف مسلول ، أو بكله — أى قفاه الذى ليس بحار — ولـكن أحـــدهم اضطرب وهو يفعل ذلك فأصاب حد السيف جبينه فانفجر الدم كأنه من نافورة ، وقد خفوا اليه ، وضمدوا جرحه ، وعصبوا له رأسه ؛ وهال أحدنا منظر الدم ، وظن أن الرجل لا محالة هالك ، فأغمى عليه ، وسقط على الأرض كما تسقط الخشبة ، فأنشقوه شيئاً فى زجاجة أنعشه ورد اليه روحه

ولا أحتاج أن أقول شيئاً فى وصف الموكب الذى يخرجون به ويطوفون بالشوارع وهم يدقون صـدورهم العارية أو يضربونها بالسلاسل ، أو يخبطون وجوههم أو عواتقهم بطون السيوف ، فان ذلك كله معروف مألوف ، وإن كان قد انقطع ، والأكثر من الناس قد رآه فى زمانه ، ولـكنى أقول إنى بعد بضعة أيام من شهود هذه « الزفة » وقعت على مقال فى مجلة انجليزية لـكاتب انجليزى أو المـانى — لا أذكر ، فان العهد بها بعيد ، وقد فقدتها على الرغم من حرصى عليها وتحفظى بها — وفى هذا المقال يذهب الـكاتب — والأرجح أنه ألمـانى — إلى أن الحسين بن على رضى الله عنهما ، تعمد أن يضحى بنفسه ؛ وأذكر أنه قال إن الحسين لم يكن أبله ، فقد حاول أمراً عرف مبلغ استحالته ، ومع ذلك أصر على الزحف ، وليس معه إلا النساء والأطفال وحفنة صغيرة من الرجال ، مضى بهم وبنفسه معهم إلى بوار محقق

وقد دارت فى نفسى هذه المقالة ، فذهبت بها إلى صـديق الفارسى ، فقد كان عالما واسع الأطلاع ، غزير المعرفة ، وترجمتها له ، وسألته عن رأيه فيها ، فلم يتردد فى الموافقة عليها . وقد فكرت بعد ذلك فى أمر الحسين وفى مغامرته العجيبة ، فلم يزدنى ذلك إلا اقتناعاً برأى هذا المستشرق الألمـانى ، وبغير ذلك لا أدرى كيف يستطيع المرء أن يفسر اقدامه على طلب الخلافة وسعيه لانتزاعها من بنى أمية ، فقد عرض نفسه على كثير من القبائل فما وجد منها إلا اعراضاً وانصرافاً ، أو على الأقل فتورا شديد عن نصرته ، من حقه أن يثبط ، وليس من شأنه أن يشجع ولم يكن حوله من الرجال من يطمع أن يديل بهم من بنى أمية وحمل معه النساء حتى لـكن أكثر من الرجال ، ولم تصده عن السير خيبة مساعيه عند القبائل ، ووضوح خذلانها له ؛ والتقى برجال بنى أمية فعرضوا عليه ما لا يمكن أن يحلم بالفوز به بمجهوده فأباه وأصر على المغامرة ، فوقعت الواقعة ، وكانت هذه المجزر الخالدة التى لا يزال أثرها باقياً الى اليوم

ولم يكن الحسين مجنوناً ، ولا طياشاً ، ولا عرف عنه مايحمل على سوء الظن بعقله ونظره ، فكيف هم بأمر كان من استحالته على يقين جازم ؟ ؟ وهبه كان مخدوعا فى اول الأمر فقد رأى من الاعراض عنه والخذلان له ، والزهد فى الانتقاض على بنى أمية والخوف من بطشهم وانتقامهم ، مايدفع إلى اليأس ويغرى بالقعود ؛ ولا يمكن أن يقال إنه كان يرجو فلاحا ، فما كان معه فى زحفه إلا النساء وإلا عشرات لا تغنى ، ولا يعقل أن تصبر على قتال دولة ذات بأس وصولة ، وما رأى أحدا استجاب لدعوته ، أو أبدى استعدادا للالحاق به ، حتى يقال إنه كان ينتظر نجدة ومددا ، وهؤلاء النسوة من آل بيته لم أصر على حملهن معه وزحفه بهن ، وقد كان خليقاً بعد أن رأى كيف خذلته القبائل أن يشفق عليهن ويردهن ليقيهن أن يصرن الى ما هو صائر اليه لا محالة . ألا يعذر من يذهب إلى أن استصحابه لهن إلى المذبحة ، إنما كان مقصودا

أن يخف المصرع الذى مضى اليه عامدا بكل عوامل الاستفزاز وعناصر الايلام المثير ؟ ؟ لقد ألقى بهن معه على القتل أو الاذلال والتحقير والهوان ، وهن آل بيت الرسول صاحب هذا الدين ، فلولا أنه تعمد أن يضحى بهن معه ليقيم القيامة على بنى أمية ، لكان أيسر التفكير كافياً لحمله على اقصائهن عما سعى اليه ووطن نفسه عليه ؛ ولكنه نظر فرأى أن استرداد الدولة من بنى أمية مطلب لا سبيل اليه ولا مطمع فيه ، فيئس من إمكان ذلك بالوسائل المألوفة ، فقال أنسف الدولة الأموية من قواعدها ، وأكون أنا اللغم الذى ينفجر تحتها ، فيزلزلها ويدك بنيانها ، ويطير أنقاضها ، ويجعل عاليها سافلها ؛ ولا بد لذلك من أن تكون التضحية تامة ، وعلى أبشع صورة من الصور ، وأرغم بنى أمية على أن يقتلونى أقبح القتل ، وأن يمثلوا وينكلوا بى وبأهلى أشنع التمثيل والتنكيل ؛ فيستفظع المسلمون منهم ذلك — على قرب العهد بالرسول — وتضطرم نفوسهم بالموجدة والنقمة عليهم ، وينقلب العالم الاسلامى بركاناً يظل يفور ويغلى فى جوفه الحقد والبغض ، ثم ينفجر ، فلا يبقى ولا يذر ؛ وإنى لميت ميتٌ ، طال الأجل أم قصر ، ولخير من أن أموت حتف أنفى ، أن أجعل ميتتى تكأف بنى أمية ملكهم كله ودولتهم أجمعها ؛ ولقد خرج الأمر من أيدينا وصرنا رعية لبنى أمية ، فاذا رضينا وقنعنا من الحياة بالطعام والشراب ، وقعدنا ننتظر الأجل فى أوانه ، ثبتت الدولة ورسخت قواعدها . وإنى لأعلم أنه ليس لى حول ولا قوة ، ولكن فى وسعى أن أملأ نفوس المسلمين قيحاً وصديدا من كره بنى أمية ، إذا بذلت دمى ، وما دمى ؟ وهو سيجمد فى عروق يوما ما ، فأولى أن يخضب الأرض فلا تلبث أن تنقلب جحيما عليهم ؛ وما خير أن أكون سبط الرسول إذا أنا لم أرج الدنيا بذلك ؟ وإن الأمر لراجع الينا لا محالة إذا أنا جعلت من نفسى ومن أهلى ضحايا لبنى أمية ، ويجب أن يكون قتلنا استشهادا مروعا لتكون الدية هذه الدولة كلها

لهذا أصر على المغامرة ، وهو على يقين من نهايتها ، وأعرض عن ذكر العواقب التى كان يعرفها معرفتها ، ولم يكترث بخذلان من دعاهم الى نصرته ، بل اغتبط بذلك ، وحمل أهل بيته معه ليحيق بهن كل مكروه من الأذى والهوان ، وليكون ما يصيبهن أبلغ فى إشعار العرب هول الفجيعة ، وأبى أن يجعل أذنه الى الذين أشفقوا عليه أو سعوا عنده ليرضوه ويحملوه على العدول ، أو وعدوه ما شاء غير الخلافة ؛ ولم يكن يخفى عليه أنه يعاند ويكابر ويتحدى الأقدار ، ولكنه كان يدرك أن هول المصرع الذى يسير اليه مصمما عليه سيطوى كل ذكر لما عداه ، فلا يبقى إلا أن بنى أمية قتلوا سبط الرسول وآله ، ومثلوا بهم أقبح التمثيل . وكان يعرف أن بنى أمية لا بد أن يعدلوا عن محاسنته إلى المخاشنة لشدة ما يرون من عناده وصلابته ، إذ كان لا يسعهم أن يتركوه يحرض الناس على الخروج عليهم ، بلا كابح ، وقد عرضوا عليه كل ما دون الخلافة فازدراه ، فلم يبق مفر من رده بالقوة ، كما شاء هو ؛ وكان هو يعول فى سياسته هذه على احراجهم وإكراههم على البطش به ، ويعتمد على ما تدفعهم اليه لجاجته فى استفزازه لهم ، فتطيش حلومهم ، فتكون الطامة عليهم بعد أن تدور الدائرة عليه . وقد جرى كل شىء على ما قدر ورسم ، وحدث ما كان ينشد ، فأسرف الأمويون فى القتل والتمثيل والتنكيل ، كما كان يتوقع ، وصدقت فراسته القوية فى رجال الدولة على عهده ، ولم يخب له ظن أو رأى فيهم ، فريعت الدنيا ، وهالها الأمر على ما كان قدر ، وصارت كل قطرة من دمه ، وحرف من اسمه ، وهاتف من ذكراه ، لغما فى أساس الدولة الأموية

وقد ذهبت الدولة الأموية فى سبيل من غير ، وجاءت بعدها دول أخرى لحقت بها ، ومضى أربع وخمسون وثلثمائة وألف سنة ، ولا تزال لذكرى مصرع الحسين هزتها الأولى فى كثير من البلاد الاسلامية ؛ ومأتمه يقام كل عام فى كربلا كأنما هو لم يقتل إلا الساعة ؛ ويموت الشيعى فى بغداد أو سواها فيحمل منها إلى النجف ليدفن هناك . وأحب آل البيت إلى النفوس وأعزهم عليها هو الحسين ، ولا تزال العيون تغرورق بالدمع ، والقلوب تخفق ، والصدور تعلو وتهبط لحكاية هذا المصرع . فمن كان يصدق أن الحسين فعلها عن طيش أو سوء تقدير ، أو تورط ، فانى لا أصدق إلا أنه أقدم عليها متعمدا لها . ولو أن ميتاً استطاع أن يضحك ساخراً لضحك الحسين ورأسه بين أيدى قتلته البلهاء

ولست أعرف ميتة أخرى أبلغ أثراً فى حياة الناس ، ومستقبل الدول والأمم ، ولا أطول منها — مع عمق الأثر — عمر ذكرى

ابراهيم عبد القادر المازنى